

الفصل الخامس

لَسْتُ بِالْخَبِّ، وَلَا الْخَبُّ يَخْدَعُنِي





في مستوى فطرته، وإيمانه، ومسئوليته، كان زكاؤه وكانت فطنته. ولقد لخصت أم المؤمنين «عائشة» رضي الله عنها حذقه الفائق فقالت: «كان والله أَحْوَذِيًّا، نسيح وحده، قد أعدَّ للأُمور أقرانها»..

ولقد أفاء الله عليه الكثير الغدق من الفهم والحكمة ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٦٩]

و«عمر» أهل لفضل الله وعطائه وخيره، فليس في حياته كلها شيء له. إنها كلها مُكْرَسَةٌ لله. منذورة لطاعته وخدمة خلقه. وزكاؤه سناد للحق، لا للباطل.

وهو ينبع من مسئوليته، ويعمل وفقها. وهو زكاء الفطرة السوية، والتجربة اليقظي، ومن ثم فهو لا يعرف المراوغة، ولا المُمَارَاة.. إنما يتحرى الحق، وينفذ إلى اللباب المستبسر في مثل لمح البصر أو هو أقرب!!

وحظه من فقه الإسلام خاصّة، حظّ عظيم جدّ عظيم،

يقول عبد الله بن مسعود:

«كان عمر أعلمنا بكتاب الله. وأفقهنا في دين الله».

وكان أصحابه يتحدثون بأنه ذهب وحده بتسعة أعشار العلم. والحق أن توقّد ذكائه، وخصوبة قريحته لا يخفيان في أي تصرف من تصرفاته، أو كلمة من كلماته..

وكما لا يزهو «عمر» بسلطانه، فهو لا يزهو بعبقريته.. تلك العبقرية التي لو شاء أن يخوض بها معارك الذكاء لربحها جميعاً، غير أنه لم يُعْطَ نعمة الذكاء كما يرى، إلا ليُبصر الحق في ضياء هذا الذكاء، وليتجنب به أحابيل المكر السيئ التي ينشرها دائماً أعداء الوضوح وخصوم الحق..

كثيراً ما كان يقول ﷺ:

«لست بالخَبِّ، ولا الخِبُّ يخدعني»!..

وهي عبارة تصور طبيعة نبوغه وذكائه.

فهو ليس ذكاء عُذوانياً.. ولا ذكاء مُراوغة وختل..

ليس ذكاء هجوم . بل... ولا ذكاء مقاومة..

إنما هو ذكاء تَفُوق، يتفجر من شخصية متفوقة، ويعمل في

خدمة مبادئ متفوقة..

هو إذن ليس ذكاء معارك، بل ذكاء بطولات...

وليس نكاءً مدرسيًا، بل نكاءً خلَاقًا مُبدعًا..
وهذا أيضًا من آيات هذا العقل الذى يؤمن بالنص ويُدعن للأثر.
ثم هو مع هذا صَوَّال جَوَّال. يستشرف الغيوب ويكاد أحيانًا يسبق
الوحي، مما جعل رسول الله يقول مشيداً بهذه الفطنة الخارقة:
«إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه»..

* * *

يقول للرسول يوماً:
يا رسول الله. أليس هذا مقام إبراهيم أبينا؟
يقول الرسول: نعم.
فيقول عمر: فلو اتخذت منه مُصَلًى.
فما هى إلا أيام حتى يتنزل الوحي بالآية الكريمة: ﴿وَأَخَذُوا
مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًى﴾ [سورة البقرة: الآية ١٢٥].
ومثل هذه الواقعة كثير، حيث كانت تنبثق من عقله المضى،
وبصيرته الذكية فكرة، أو أمنية، فيتنزل بها الوحي بعد قليل.
من أجل هذا قال الرسول فيه:
«لو كان بعدى مُحدِّثون، لكان عمر»..
ومن أجل هذا جعله الرسول مصدرًا من مصادر التشريع حين
قال لأصحابه:
«إنى لا أدرى ما مقامى فيكم، فاقتدوا باللذين من بعدى،
أبى بكر وعمر»..

ونكأ «عمر» عميم واسع، ونظرته الحصيفة تُجلى كل غامض،
وتنفذ إلى كل غُور بعيد..
ورأيه في شىء يسير، كراهيه في أمر خطير – كلمات وجيزة،
وأحكام مستوعبة..
وله فقه عظيم بطباع الناس... كفه العظيم بأحداث الدنيا
وأسرار الحياة!!

كان يقول: «الناس بزمانهم؛ أشبه منهم بآبائهم».
ويقول: «ما من أحد عنده نعمة، إلا وجدت لها حاسداً.. ولو
كان المرء أقوم من القحح. لوجدت له غامزاً!!»
أحكام وجيزة، لكنها عميمة، تتركز فيها حكمة «عمر»
وعبقريته، وخبرته العميقة بنفس الإنسان.
وإنه ليضع الناس في ميزان ذكى قويم فيقول:
«أحبكم إلينا قبل أن نراكم أحسنكم سيرة، فإذا تكلمتم فأبينكم
منطقاً، فإذا اختبرناكم فأحسنكم فعلاً».
والمظاهر العابرة، لا تكفى عنده لتكوين أحكام عن الآخرين.
يسمع واحداً يُطرى آخر ويمتدحه قائلاً، إنه رجل صدق.
فيسأله عمر: هل سافرت معه يوماً؟
يقول الرجل: لا

- هل كانت بينكما خصومة يوماً؟

- لا..

- هل ائتمنته يوماً على شيء؟

- لا..

فيقول عمر: «إذن لا علم لك به. لعلك رأيته يرفع رأسه في

المسجد ويخفضه»!!

هذا إمام من أئمة التقى والورع والهدى، ثم لا يرى رفع الرأس وخفضه في المسجد كافيًا للثقة بمن يفعل هذا، لا تهوينًا لشأن العبادة، ولكن إحاطةً بأسرار النفس الإنسانية وحسن فهم لتياراتها الخافية..

إن ذكاء «عمر» لا يأتي الأمور من بعض زواياها، إنما يكشفها جميعًا، ويستوعبها حتى آخر نماذجها واحتمالاتها..

فهو في معرفته بالناس لا يكتفى بتمحيص جانب العبادة فيهم، على الرغم من علو مكانة العبادة والعابدین عند «عمر»، إنما يُطل على الشخصية كلها، لأن العبادة أيضًا في مفهومها السديد عند «عمر»، تعنى استواء الشخصية الإنسانية واكتمالها..

من أجل هذا، كان يشكو كثيرًا من سذاجة التقى، ومقدرة غير

التقى..

وما كان يرى السذاجة والغفلة من خصائص العبادة والتقوى. بل التقوى عنده قوة وطهر. وسعة حيلة، وتفوق..

والحياة لديه ليست غفلة سالحة. بل هى تجربة ناجحة،
ومراس أمين.

تحدث الناس عنده يوماً عن رجل وذكره بخير فقالوا: إنه لا
يعرف الشر أبداً..

فقال «عمر»: ذاك أجدر أن يقع فيه..

ليس معنى هذا طبعاً أن ارتكاب الشر ضرورى لمعرفة، إنما
معناه أن يكون الإنسان بصيراً بالشرو حتى لا تغزوه متنكرة فى
ثياب الخير..

ويدرك «عمر» كذلك بفطنته المتألقة أن الفضيلة ليست انسحاباً
من الحياة حَذَرِ الفتنة، بل هى مجابهة الحياة ومُغالبة الفتنة.
وفى هذا يُسأل: أيهما أذكى وأفضل - رجل لا يَأثم لأن نفسه لا
تشتهى الإثم، أم رجل تشتهى نفسه الإثم ولا يَأثم..

فيجب «عمر» الحصيف الألمعى: «الذين يشتهون المعصية،
ولا يعملون بها، أولئك الذين امتحنَ الله قلوبهم للتقوى،
لهم مغفرة، وأجرٌ عظيم»!!

* * *

وتتراحب أبعاد هذا الذكاء وهذا الفقه، حين يواجهان مشاكل
الحياة والناس.

تُعرض عليه قضية يُفتى فيها، وبعد حين، تعرض عليه قضية مماثلة لتلك، فيفتى فيها فتوى مغايرة.. فإذا سئل عن سر هذا التفاوت قال: ذاك على ما قضينا، وهذا على ما نقضى.. إن ظروف القضيتين مختلفة، وإن تماثلت الوقائع وعمر الفقيه العبقري، لا يحمل داخل عقله فتاوى كالقوالب الجامدة، إنما يحمل فهمًا يتحرك في كل الجهات، ويدرك ما لتباين الظروف وتغاير الأسباب من تأثير في الحادثة، وتأثير في الحكم..

ولا شيء يفوق ذكاء «عمر»، سوى جرأة هذا الذكاء!!
فراه وهو الذي كان يتحرى التزام النص، ومتابعة الرسول ﷺ. يعلن إنهاء حكم شرعي، مات الرسول وهو نافذ قائم، ومات أبو بكر وهو نافذ قائم، ولا يزال منطوق هذا الحكم آية تتلى في كتاب الله!!

هذا الحكم، هو تخصيص جزء من ضريبة الزكاة للمؤلفة قلوبهم، والمؤلفة قلوبهم جماعة دخلوا الإسلام باقتناع ضعيف، أو بغير اقتناع، ففرض القرآن لهم في بيت المال حظًا يأخذونه من الزكاة. تألفًا لهم، حتى لا ينصرفوا عن الدين قبل أن يذوقوا حلاوة الإيمان فيقبلوا عليه راغبين موقنين..

قلب «عمر» وجوه الرأي في هذا الشأن ثم قال:

«لقد كان رسول الله يعطيهم، والإسلام يومئذ ضعيف.. أما اليوم فقد أعزَّ الله دينه وأعلى كلمته، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر، ولن يتسع هذا الدين إلا لمن يدخله راغباً مؤمناً».

إن هذا الموقف وحده يرتفع إلى أعلى مستويات الذكاء الإنساني ليس لما يتضمن من حسن التعليل، بل لما يتضمن من شجاعة التفكير، فكثيرون يستطيعون أن يدركوا ما أدرك «عمر» من حكمة التشريع في مثل هذه الواقعة، لكن «عمر» وحده هو الذى يستطيع ذكاؤه الحاسم أن يطوِّر هذا التشريع، لا سيما إذا كان مقررًا بآية قرآنية لم تُنسخ. وعمل للرسول لم يُنقض..

الحق أن أعمق رؤى البصيرة، وأعمق أسرار الشريعة، قد التقت لقاء سعيداً فى وَعَى هذا الرجل الراشد الأمين!

ولقد أشاد الرسول بهذه النعمة التى أفاءها الله على «عمر».

فيروى البخارى ومسلم رضي الله عنهما، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

- «بينما أنا نائم، إذ رأيت قدحاً أتيتُ به فيه لبن، فشربت منه حتى إنى لأرى السرىَّ يجرى فى أظفارى، ثم أعطيتُ فضلى عمر بن الخطاب.. قال أصحاب الرسول، فماذا أولَّته يا رسول الله؟ قال: العلم».

* * *

يُجاء إليه بمسلم ارتكب ما يوجب الحدّ، ويشهد ثلاثة شهادة تدينه، ولم يبق إلا شهادة الرابع، ثم يصير الحد عقاباً محتوماً.. ويرسل «عمر» يستدعى الشاهد.. ولا يكاد يراه مقبلاً حتى تأخذه رهبة.. وحين تقترب خطاه، ينظر إليه أمير المؤمنين ويقول: «أرى رجلاً أرجو ألا يفضح الله به واحداً من المسلمين».. ويقدم الشاهد، ويقول: لم أر شيئاً يوجب الحد.. ويتنفس «عمر» الصّعاء!!

ويأتيه رجل يسعى ذات يوم ظاناً أنه يحمل إليه بشرى. فيقول يا أمير المؤمنين، رأيت فلاناً وفلانة يتعانقان وراء النخيل، فيمسك «عمر» بتلابيبه، ويعلوه بمخفقتة، ويقول له بعد أن يوسعها ضرباً: «هلاً سترت عليه، ورجوت له التوبة؛ فإن رسول الله قال: من ستر على أخيه ستره الله في الدنيا والآخرة»!!

هذا رجل معه من الورع ما يستهجن به الخطأ الأخلاقي، ولكن معه من الفطنة ما يُقدّر به ظروف هذا الخطأ، ومعه من الفقه ما يؤدي به حق الورع وحق الفطنة معاً!!

وإنه ليوصي الناس بهذا الفقه العظيم فيقول: «هكذا فاصنعوا.. إذا رأيتم أخواً لكم زلّ زلّة فسددوه ووفّقوه، وادعوا الله أن يتوب عليه، ولا تكونوا عوناً للشيطان»..

إن أمير المؤمنين شديد الوطأة، شديد البأس، ولكن الفهم
السديد يضيء كل مواقفه، وهو يقضى بذكائه لا بعواطفه.. فصحيح
أنه ينفر من الإثم، ولكنه يُمحصّ ظروف اجتراحه تمحيص خبير،
ويضع القاعدة الذهبية التي تقول:

«لأنّ أعطل الحدود في الشُّبُهات، خير من أن أقيمها في

الشبهات!»!

يأتيه يوماً رجل يستفتيه قائلاً:

– إن ابنتي كانت قد أصابت حدًّا من حدود الله، وأخذت الشفرة
لتذبح نفسها، فأدر كناها وقد قطعت بعض أوداجها فداويناها حتى
برئت، ثم تابت بعد توبة حسنة. وهي اليوم تُخطب إلى قوم،
أفأخبرهم بالذي كان؟

فيجيبه عمر بن الخطاب الذكي، والذكاء الورع..

– «أتمدّ إلى ما ستره الله فتبديه؟ والله لئن أخبرت بها أحدًا من
الناس لأجعلنك نكالا لأهل الأمصار، اذهب وأنكحها نكاح العفيفة
المسلمة»!!

وأمير المؤمنين لا يكون أحكامًا جزئية مُبتسرة. بل تجيء
أحكامه دائمًا شاملة مستوعبة. ولا يصرف بصيرته عن الواقع،
بل يركزها عليه، ويحيط به، ويجعله من مصادر تفكيره الرشيد..

- فى إحدى اللىالى، وقد خرج عائسا فى المدينة، ينفذ الليل عن الكروب المخبوءة، سمع سيدة تشكو بثها وحُزنها وتقول:

تطاوَلَ هذا الليل، وازورَّ جانبه وليس إلى جنبى حليلٌ لأعبه
فوالله لولا الله لا رب غيره لزلزل من هذا السرير جوانبه
مخافة ربى، والحياء يصدنى وأكرم بعلى أن تُنال ركائبه

ثم قالت: أهكذا يهون على «عمر» وحشتنا، وغيبة رجلنا عنا؟
ويتبين «عمر» أن زوجها مجند فى أحد جيوشه..

وعند الصباح يذهب إلى ابنته حفصة ويسألها:

- يا حفصة.. كم تصبر المرأة عن زوجها؟!

فتجيبه: تصبر شهراً، وشهرين، وثلاثة، وينفذ مع الشهر

الرابع صبرها.

فيسنُّ من فوره قانوناً، بألا يغيب فى الجهاد جندى متزوج أكثر

من أربعة أشهر.. ويرسل إلى زوج السيدة يستدعيه من فوره!!

- ويسمع شيخاً كبيراً يبكى فى شعر جزل ولده الوحيد الذى طال

غيابه عنه.. ويسأل «عمر» فيعلم أنه هو الآخر فى أحد جيوش

المسلمين، فيستدعيه فوراً ثم يسن قانوناً ألا يخرج إلى الجهاد

من له أبوان كبيران إلا بعد إذنهما!!

نكاء يعمل على الطبيعة، ويستمد من واقع الناس والحياة

مادة تفكيره..

- ولقد درج العرف والقانون على اعتبار الاعتراف سيد الأدلة. وهذا حق، ولكن أمير المؤمنين يقرر بفظنته أنه ليس كذلك دائماً. ولا بد لكى يؤخذ الاعتراف كدليل، ألا يُعزَل عن الظروف التى تكتنفه وتحيط به، فلربما يجيء نتيجة خوف أو إكراه، وعندئذ يفقد قيمته.

يقول عمر:

- «ليس الرجل بمأمون على نفسه إن أجعته أو أخفته، أو حبسته، أن يُقر على نفسه»!!
- وهو يأمر قواد جيوشه ألا يُنزلوا بجندى عقاباً حتى «يطلعوا من الدرب قافلين»!!

إذا ارتكب جندى خطأ ما، فلتتحقق الواقعة، ولتحدد المسؤولية، ولكن توقيع الجزاء والعقوبة، يظل مرجأ حتى يُغادر الجندى بلاد الأعداء، ويعود إلى وطنه..

ويعلل أمير المؤمنين قراره هذا، بالخوف من أن يلحق الجندى بالأعداء ويأوى إلى صفوفهم إذا أنزل به العقاب هناك!! إن نكاهه التشريعى يتجلى فى هذه الوقائع اليسيرة التى ذكرناها تجلياً يكشف عن روح الفهم النافذ والاستعداد العظيم عند ذلك الرجل الملهم الرشيد.

- وإنه ليجاء إليه يوماً بغلمان صغار السن سرقوا ناقة رجل من مُزينة..؟ فلا يكاد يراهم صفر الوجوه، ضامرى الأجسام حتى يسأل: من سيد هؤلاء؟

قالوا: حاطب بن أبى بلتعة..

قال: إلیّ به..

فلما جاء حاطب، سأله: أنت سيد هؤلاء؟

قال: نعم يا أمير المؤمنين.

قال عمر: لقد كدت أنزل بهم العقاب، لولا ما أعلمه من أنكم

تدئبونهم، وتجيعونهم - لقد جاعوا فسرّقوا، ولن ينزل العقاب

إلا بك!!

ثم سأل صاحب الناقة:

- يا مُزنى، كم تساوى ناقتك؟؟

قال: أربعمائة..

قال عمر لحاطب: اذهب فأعطه ثمانمائة..

ثم قال للغلمان: اذهبوا، ولا تعودوا لمثلها!!

* * *

وحين نتبع أفكار «عمر» فى كلماته التى يصوغها فى أحسن

تقويم، نرى الجزالة، والوضوح، والمعانى الكبيرة، والأهداف

النبيلة. تلتقى لقاء سعيداً فى كل كلمة تنفرج عنها شفتاه..

حين ولى الخلافة وقف يقول لقومه:

- «لن يغير الذى وليت من خلافتكم شيئاً من خلقى، إنما العظمة

لله وحده، وليس للعباد منها شىء».

ويحدثهم عن المال فيقول:

«ألا إنى ما وجدت صلاح هذا المال إلا بثلاث: أن يؤخذ من حق، ويعطى فى حق، ويمنع من باطل... ألا وإنما أنا فى مالكم هذا كوالى اليتيم: إن استغنيت استعفت.. وإن افتقرت أكلت بالمعروف».

ويقول فى كلمات وضاء عذاب:

«من أراد أن يسأل عن القرآن، فليأت أبى بن كعب.. ومن أراد أن يسأل عن الفرائض. فليأت زيد بن ثابت.. ومن أراد أن يسأل عن الفقه، فليأت معاذ بن جبل.. ومن أراد أن يسأل عن المال فليأتنى؛ فإن الله جعلنى له خازناً وقاسماً»..

«إنى بادئ بأزواج رسول الله فمعطيهن، ثم المهاجرين الأولين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم، ثم الأنصار الذين تبوأوا الدار والإيمان من قبلهم، ثم من أسرع إلى الهجرة أسرع إليه العطاء، ومن أبطأ عن الهجرة أبطأ عنه العطاء، فلا يلوم من رجل إلا منأخ راحلته»!!

ويقول فى توزيع الثروة:

«إنى حريص على ألا أدع حاجة إلا سددها ما اتسع بعضها لبعض، فإذا عجزنا تأسينا فى عيشنا حتى نستوى فى الكفاف»!!

وحين نستعرض كتبه لقواده وولاته نرى كيف كان ذكاؤه يبلغ غاية الرشد في كل شأن من الشؤون..

يكتب لأبي موسى الأشعري موضحاً له منهج القضاء الذى ينبغى أن ينتهجه فيقول:

«من عبد الله أمير المؤمنين، إلى عبد الله بن قيس.. سلام عليك..
«أما بعد: فإن القضاء فريضة محكمة، وسنة متبعة، فافهم إذا
أدلى إليك، وأنفذ إذا تبين لك؛ فإنه لا ينفع حق لا نفاذ له..
«أس بين الناس فى مجلسك ووجهك؛ حتى لا يطمع شريف فى
حيفك، ولا ييأس ضعيف من عدك..

«البينة على من ادعى، واليمين على من أنكر..
«والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحاً أحل حراماً أو حرم
حلالاً..

«ولا يمنعك قضاء قضيته بالأمس، فراجعت فيه نفسك وهديت
لرشدك أن ترجع إلى الحق: فإن الحق قديم لا يبطله شيء. ومراجعة
الحق خير لك من التماذى فى الباطل..

«الفهم، الفهم فيما تلجلج فى صدرك مما ليس فى كتاب ولا فى
سنة، واعرف الأنشابه والأمثال، ثم قس الأمور عند ذلك، واعمد
إلى أحبها إلى الله، وأشبهها بالحق فيما ترى... واجعل لمن ادعى
حقاً غائباً أو بينة، أمداً ينتهى إليه، فإن أحضر بينته أخذت له

بحقه وإلا استحللت عليه القضاء؛ فإن ذلك أنفى للشك، وأجلى للعمى، وأبلغ في العذر..

«والمسلمون عدول في الشهادة بعضهم على بعض، إلا مجلوداً في حد، أو مجرباً عليه شهادة زور، أو ظنيماً في ولاء أو قرابة؛ فإن الله قد تولى منكم السرائر، ودرأ عنكم الشبهات»..

«وإياك والقلق، والضجر، والتأذى بالناس والتنكر للخصوم في مواطن الحق التي يوجب الله بها الأجر، ويحسن الذخر فإنه من يخلص نيته فيما بينه وبين الله تبارك وتعالى، يكفه الله ما بينه وبين الناس، ومن تزين للناس فيما يعلم الله خلافه منه، شأنه الله وهتك ستره وأبدى فعله، فما ظنك بثواب عند الله في عاجل رزقه، وخزائن رحمته؟ والسلام!!»

«ويدخل عليه وفد من المجاهدين كانوا يفتحون تكريت وجلولاء، فيرى جسومهم ضامرة ووجوههم شاحبة، فيسألهم عن سبب ضعفهم فيجيبونه بأنها وخومة البلاد ورطوبتها».

فيكتب لسعد يأمره أن يحسن اختيار مكان يلائم الناس، ويرسم له الطريق فيقول:

«ابعث سلمان رائداً، وحذيفة؛ فليرتادا منزلاً ليس بيني وبينكم فيه بحر ولا جسر، وادع أبا الهياج بن مالك، وأمره أن يجعلها مَناهج - يعنى شارع - عرض كل منهما أربعون ذراعاً.. وأخرى

عرض كل منها ثلاثون ذراعاً.. وأخرى عرض كل منها عِشرون ذراعاً، لا تضيق عن ذلك شيئاً. وأمره أن يجعل فيها أزرقة، الزقاق سبعة أذرع، لا يضيق عنها شيئاً!

ويكتب لسعد أيضاً ببعض توجيهاته العسكرية فيقول:
«ترقق بالمسلمين في مسيرهم، ولا تجشمهم مسيراً يتعبهم، ولا تقصر بهم عن منزل رفق، حتى يبلغوا عدوهم والسفر لم ينقص قوتهم.. وأقم بمن معك في كل جمعة يوماً وليلة حتى تكون لهم راحة يُجمون فيها أنفسهم ويرمون أسلحتهم وأمتعتهم..
ثم يقول:

«وإذا وطئت أدنى أرض العدو فأذكِ العيون بينك وبينهم، حتى لا يخفى عليك أمرهم، واختر لهذا من تعلمئن إلى نصحه وصدقه؛ فإن الكذوب لا ينفك خبره وإن صدق في بعضه، والغاش عين عليك وليس عيناً لك..

«وإذا دنوت من أرض العدو، فأكثر الطلائع، وبث السرايا، أما السرايا فتقطع أمدادهم ومرافقهم، وأما الطلائع، فتبلو أخبارهم، وانتق للطلائع أهل الرأي والبأس من أصحابك، وتخبر لهم سوابق الخيل؛ فإن لقوا عدواً كان أول ما تلقاهم القوة من رأيك، واجعل أمر السرايا إلى أهل الجهاد والصبر على الجلال، ولا تخص أحدًا بهوى فيضيع من رأيك وأمرك أكثر مما تحابي به أهل خاصتك،

ولا تبعث طليعة ولا سرية في وجه تتخوف فيه ضيعة ونكاية،
فإذا عاينت العدو، فاضم إليك أقاصيك وطلائعك وسراياك!!

ويكتب إليه أيضًا:

- «بلغنى أنه فشا لك ولأهل بيتك هيئة في لباسك ومطعمك
ومركبك ليس للمسلمين مثلها، فإياك يا عبد الله أن تكون بمنزلة
البهيمة التي مرت بواد خصيب فلم يكن لها هم إلا السمن، وإنما
حَتَفُها في السمن..! واعلم أن للعامل مردًا إلى الله، فإذا زاغ زاغت
رعيته، وإن أشقى الناس من شقيت به رعيته!!»

في هذه الرسائل أدلى «عمر» برأيه في مشاكل شتى، في القضاء،
وفي العمارة؛ وفي الجهاد؛ وفي أمانة الحكم..
وفيها، وبين سطورها تتألق بديهته، ونبوغه..

وحتى حين كان يعبر عن أفكاره في تبسط ودعابة، كانت
الحكمة الذكية تملأ الكلمات والحروف..

يمر يومًا بدار جديدة في أطراف المدينة، فيسأل: دار من هذه؟
فيقولون: دار فلان، وفلان هذا واحد من ولاة عمر..
فيقول: أبت الدراهم إلا أن تخرج أعناقها!!

ويبصر يوماً نائحة تستجيش أحزان الناس وتمسح دموعها
الكواذب فيعلوها بمخفقته، ويطردها ويقول: «إنها لا تبكي
بشجونكم، إنما تبكي بدراهمكم!!».

ويسأل أحد أولاد «هرم بن سنان» الذي خلده بشعره، «زهير بن
أبي سلمى»، فيقول له أنشدني بعض مدح زهير أباك. فينشد..
فيقول عمر: إن كان ليحسن فيكم القول..
فيجيبه الرجل: ونحن والله. إن كنا لنحسن له العطاء..
فيقول عمر: قد ذهب ما أعطيتموه.. وبقي ما أعطاكم!!
ذكاء ثاقب - يعبر عن نفسه بكلمات ثاقبة!!

وبعد، فالذكاء البشري يقترن غالباً بالطموح الشديد، والسعى
الدائب وراء المزيد من أمجاد الدنيا والعلو فيها..
وهنا نلتقى خصائص ذكاء ابن الخطاب..
لقد كان ذكاء رهبانياً، لا يعمل في خدمة صاحبه، وإنما
يعمل لله، ومع الله، في سبيل الحق والخير والرحمة!!
أجل، كان ذكاء رجل أوأب.. من الله مأتاه.. وإلى الله مردّه.. وفي
سبيل الله نشاطه، وتوقده، ورؤاه!!

□□□